

الافتتاحية

الدين الجديد

عَدَّ الْمُفَكَّرُونَ الأوروپِيُّونَ أَنَّ عَصَرَ الأَنْوَارِ الَّذِي كَانَ بِدَايَةِ الحَدَاثَةِ الَّتِي أَنْهَتْ سَيْطَرَةَ الكَنِيسَةِ الزَّمَنِيَّةَ وَالرُّوْحِيَّةَ كَانَ، فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ، بِدَايَةَ تَارِيخٍ جَدِيدٍ لِلإِنْسَانِيَّةِ، وَلَيْسَ لِلْمُجْتَمَعَاتِ الأوروپِيَّةِ، أَوْ لِلغَرْبِ فَقَط. وَرَأَى أَوْلَثُكَ المُفَكَّرُونَ أَنَّ مَا بَلَغَهُ الغَرْبُ بَعْدَ تَهْمِيشِ الدِّينِ، وَحَصَرَ المَعْرِفَةَ بِالتَّجَرِبَةِ الحِسِّيَّةِ، وَالدَّلَالَاتِ العَقْلِيَّةِ هُوَ ذُرْوَةٌ مَا بَلَغَتْهُ التَّجَرِبَةُ الإِنْسَانِيَّةُ عَلى مَرَّ التَّارِيخِ بِمَرَاكِلِهِ المُتَعَاقِبَةِ. وَلِذَا، يُعَدُّ «وَالترد مينولو» مِنَ البَاحِثِينَ الأَفَارِقَةَ أَنَّ مَفهُومَ الإِنْسَانِ وَالإِنْسَانِيَّةِ لَدَى كَانِطِ كَانَ مُؤَسَّسًا عَلى المَفهُومِ الأوروپِيِّ للإِنْسَانِ مِنَ عَصْرِ النُّهْضَةِ إِلَى عَصْرِ التَّنْوِيرِ، وَلَيْسَ عَلى «الكائنات البشريَّة الدُّنْيَا» الَّتِي كَانَتْ تَسْكُنُ فِي العَالَمِ خَارِجِ نِطَاقِ قَلْبِ أوروپَا. وَمِنْ ثَمَّ، فَإِنَّ التَّنْوِيرَ لَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ كَافَةً.

تَرَافَقَ التَّفَكِيرُ فِي مَنَاهِجِ البَحْثِ، وَفِي نِظَرِيَّاتِ العُلُومِ الإِنْسَانِيَّةِ وَالاِجْتِمَاعِيَّةِ فِي الغَرْبِ الأوروپِيِّ مَعَ تَحْدِيدِ أَهْدَافٍ وَغَايَاتٍ جَدِيدَةٍ لِلْمُجْتَمَعَاتِ الإِنْسَانِيَّةِ وَحَتَّى لِلطُّمُوحَاتِ الفَرْدِيَّةِ، أَسَاسَهَا التَّقَدُّمُ، وَبَاتَتْ تِلْكَ الغَايَةُ مِنَ أَهَمِّ نِظَرِيَّاتِ التَّنْمِيَةِ

والاقتصاد. والتقدم المقصود هو أن تستمرّ عجلات المصانع والشركات والمؤسسات في الدوران والإنتاج والتشويق بلا توقف. إن الإنتاج المتواصل والبيع والشراء هو الذي يؤدي إلى التقدم على المستويين: الفردي، والاجتماعي. تلك هي «عقيدة» التقدم مع بزوغ فجر الحداثة الأوروبية، وأقول شمس الدين في الغرب الأوربي. تحوّلت تلك «العقيدة» إلى قيم جديدة، وإلى أنموذج حدائوي لباقي مجتمعات العالم، ومقياساً لما بلغته تلك المجتمعات من رقي.

لكن سرعان ما بدأت تلك الحداثة التي قدّمت الوعود بالانتقال إلى مجتمع الرفاهية بعيداً عن الدين وآماله المؤجلة تواجه نقداً من مفكري الغرب أنفسهم الذين اعتقدوا أن الحداثة أخفقت في وعودها، وأنها لم تقدّم للإنسان ما كان يحتاج إليه.

يذكر ألفن غولدر في كتابه «الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي» (1970م) دراسة قامت بها الرابطة السوسولوجية الأميركية، استطلعت فيها رأي أعضائها البالغ عددهم 6762 عضواً، فوجدوا أن أكثر من ربع علماء الاجتماع من الذين استجابوا لاستطلاع الرأي فكروا في يوم ما أن يصبّحوا رجال دين.

قد سبق ووعدهم أوغست كونت أبرز مؤسسي علم الاجتماع الفرنسي بتأسيس «دين جديد» هو علم الاجتماع؛ لأنه كان يعتقد أن المجتمع يحتاج في لحمته وانتظامه إلى عقيدة مرجعية، باتت بالنسبة إليه هي علم الاجتماع بعدما توارى الدين المسيحي عن مسرح الأحداث، وبعدها بات تقدم العلوم الطبيعية التي قامت على البرهان التجريبي يهيم على نمط التفكير الذي جعل حتى العلوم الإنسانية والاجتماعية تجهد من أجل أن تكون علوماً على غرار تلك الطبيعية والحسية والتجريبية؛ بحيث أصبحت «الزرعة العلمية» بديلاً للديانة التقليدية التي انهارت من هنا بالذات، بدأت أزمة العلوم الإنسانية والاجتماعية؛ أي عندما أرادت تطبيق منهجية المعرفة في العلوم الطبيعية على المعرفة الإنسانية، فوصلت إلى طريق مسدود، أطلق عليه بعضهم أزمة العلوم الإنسانية والاجتماعية.

لم تقدم الحداثة للإنسان ما كان يحتاج إليه؛ لأنها تعاملت معه وفق منطق التجريب والاختبار، وقطع الصلة مع الجوانب: المعنوية، والروحانية، والغيبية. وعدته «شيئاً» لا يجب التفاعل معه، مثل المادة الجامدة، أو السائلة في مختبر الفيزياء، أو الكيمياء التي لا يتفاعل معها الباحث، والتي ليس لها أي تفاعلات

إنسانية، أو اجتماعية، أو أخلاقية. ومثل ذلك البحث العلمي الجاف في المختبر لا يربط بحثه على المادة والنتائج التي سيحصل عليها، بمعنى الحياة، ولا بالهدف من الوجود، كما يفترض البحث في المجالات الإنسانية والاجتماعية. وتلك هي الأزمة التي وقعت فيها العلوم الإنسانية والاجتماعية عندما أرادت تقليد العلوم الطبيعية، وتخلت عن الأبعاد المعنوية، والوجودية، والفلسفية، والغيبية ذات التأثير العميق على السلوك الإنساني، وعلى مناهج التفكير في النظر إلى الذات، وإلى المجتمع. وقد فاقم من تلك الأزمة أن الحداثة التي التزمت فكرة «التقدم» اعتقدت أن تصفية إرث الدين من حاضر الإنسان سينقله إلى مرحلة متقدمة من الوعي على مستوى التفكير، وإلى مرحلة متقدمة من اليقين في معرفة ما يجري حوله من دون العودة إلى الله، أو إلى الغيب. وقد أتت الحداثة، ومعها العلوم الإنسانية والاجتماعية في «التبشير» بذلك اليقين الملموس، على ما تحقق من تقدم في الرفاه المادي، وعلى ما أنجزته الاكتشافات التي سرعت المواصلات والتنقل، وحسنت الخدمات في البيوت، وفي المؤسسات والشركات. لكنّها، في الوقت نفسه، جعلت الناس كافة عمالاً في تلك المصانع والشركات، ومستهلكين لما تنتجه من بضائع تحاكي رغبات الإنسان أكثر مما تلبي حاجاته المحدودة. ومع فقدان القيم الروحية التي كانت تسهم في تحقيق الاستقرار الاجتماعي، تحوّلت المجتمعات الغربية إلى تشجيع الحصول المشترك على إشباع أكثر، وعلى رفاهية أكثر، من خلال الإنتاج المتزايد الذي سيؤدي دور اللحمة بين أفراد المجتمع.

هكذا، بات هدف الدراسات الاجتماعية والإنسانية ونظرياتها هو كيفية دمج الأفراد في ذلك المجتمع الصناعي الجديد، وقد باتوا من دون مرجعية دينية تشدّ لحمتهم كما كانوا في السابق؛ ما يُفسّر لماذا فكر أوغست كونت في تأسيس دين جديد هو «علم الاجتماع»؛ ما يُفسّر أيضاً لماذا كان أول مختبر لعلم النفس في المجال الصناعي، بعدما باتت حاجة أصحاب المصانع ملحة لفهم أوضاع العمال النفسية من أجل التعامل معهم بالطرق الملائمة التي تمنعهم من الاحتجاج، وتزيد من إنتاجيتهم، وتقوي خضوعهم لربّ العمل. ولذا، وُجّهت التهمة إلى ذلك العلم بأنه كان في بداياته في خدمة الرأسمالية، وأصحاب رؤوس الأموال، وأرباب العمل. باتت العلوم الإنسانية في خدمة المجتمع الجديد؛ مجتمع الصناعة والاستهلاك

الَّذِي جعل العالم خارج أوروبا سوقاً للتصدير من جهة، وفُرصاً لنهب الثروات بالقوة والسيطرة منذ مطلع القرن التاسع عشر مع خروج الجيوش الأوروبية من بلادها إلى احتلال معظم دول العالم. كما وقعت نظريات تلك العلوم تحت تأثير ما سُمي بالافتراضات الضمنية للمُنظرين في علم الاجتماع؛ بحيث طرِح التساؤل عن سبب استخدام علماء الاجتماع بعض النظريات على أساس أنها مُقنعة بدهياً؛ بينما يُنظرُ إلى بعض النظريات الأخرى على أنها ليست كذلك من دون أن يتضح لماذا وكيف يحدث ذلك، وما الذي يجعلُ النظرية بدهياً مُقنعة؟ ويمكن أن نرُد تلك الافتراضات الضمنية التي تميلُ نحو هذه النظرية، أو تلك إلى ما يحمله العالم نفسه، من اعتقادات ورؤى فكرية وأيديولوجية، وحتى سياسية توجهه نحو هذه النظرية، أو تلك؛ ما يعني أن لدى علماء الاجتماع القابلية الإنسانية للتحيُّز؛ وبحيث يُمكن القول: إنَّ كلَّ نظرية اجتماعية هي نظرية شخصية، وتُعبّرُ بصورة حتمية عن الخبرة الشخصية للأفراد الذين ألفوها. فعلى سبيل المثال، تأثرت نظرية ماكس فيبر العامة عن البيروقراطية بمعرفته المباشرة بالديمقراطية الألمانية، وبصفة خاصة بالبيروقراطية الحكومية، وليس البيروقراطية القطاع الخاص. فشكّلت تلك البيروقراطية أنموذجه المحوري لدراسة كل البيروقراطيات. كما اهتم كثير من علماء الاجتماع بأن يكونوا على مقربة من أصحاب السلطة. ويُفسر ألفن غولدرن الاتجاه النفعي في علم الاجتماع بأنه يتناغم مع ثقافة الطبقة الوسطى في الولايات المتحدة في نهاية الثلاثينيات من القرن العشرين. كما يُفسر ريمون آرون الانقسام الثقافي بين مدارس علم الاجتماع بأنه اختلاف بين التيارات العقلية: الألمانية، والفرنسية. وقد تزامن الاهتمام بالمجتمعات الأخرى، غير الغربية، في الدراسات الاجتماعية والأنثروبولوجية، مع النشاط المتزايد والتطور الكبير لحركة الاستعمار في معظم بلدان العالم. لا بل اختار علماء الأنثروبولوجيا أن يتجاهلوا قضايا الاستعمار، وظروف السكان الوطنيين ونضالاتهم من أجل الاستقلال، وأن يعملوا من داخل سياق النزعة الاستعمارية، والسيطرة على المستعمرات.

لم تكف الأسئلة التي وُجّهت إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية عن إثارة الأزمة التي تواجهها تلك العلوم سواء في طبيعة فهمها للإنسان بعدما تبنت تلك العلوم القطيعة التي حصلت مع الدين في المجتمعات الأوروبية، وبعدها تبنت قيم المجتمعات الصناعية وتوجهاتها في الربح، وتقديس الثروة والملكية التي سادت

منذ القرن التاسع عشر. هكذا، كتب عن أزمة علم النفس، وعن أزمة علم الاجتماع، وعن تحيُّزِ العُلُومِ الإنسانيَّةِ الغربيَّةِ، وعن تطابقِ تلكِ العُلُومِ مع مركزيَّةِ الغربِ في نظرته إلى نفسه وإلى المجتمعات الأخرى، وكان على بعض الاتجاهات النقدية في تلك العلوم أن تقوم بالدراسات المقارنة؛ لثبوت أن شعوباً ومجتمعات أخرى لا تُشارك الغرب في قيمه، ولا تُشارك النظريات في العلوم الإنسانية والاجتماعية في فهمها للفرد، وللأسرة، وللقيم المجتمعية .

كما شهدت البيئات الأكاديمية سواء في الغرب نفسه، أم في بلدان عربية وإسلامية وفي أفريقيا، وأميركا اللاتينية عشرات الندوات والمؤتمرات لتيارات نقدية أُنارت، منذ عقود، النقاش في أزمة العلوم الإنسانية الغربية، وفي تأثير نظرة الحداثة الأوروبية على تشكُّل نظام القيم الذي تأثرت به العلوم الإنسانية والاجتماعية. كما كُتب الكثير عن أزمة الحداثة وتأثيراتها على تطوُّر العلوم الإنسانية، وعلى تلك القطيعة بين علوم الإنسان والقيم. كما بُدلت محاولات بحثية مهمة من مدارس واتجاهات عدة من أجل مقاربات مختلفة للعلوم الإنسانية من آسيا، وأفريقيا، وأميركا اللاتينية، إلى ما أُطلق عليه «تحرير المعرفة» في كيفية بناء علوم إنسانية جديدة، وفي براديجمات جديدة للعلوم الإنسانية، وكيف تكون الإشكاليات الأخلاقية في قلب العلوم الإنسانية، وكيف يمكن أن تُسهِّم تلك العلوم في حلِّ المُشكلات العالمية في العالم المعاصر.

يذهب إمانويل فالرشتاين في الإطار نفسه إلى ما يُسميه «مساءلة زُوَادِ عِلْمِ الاجتماع» في كتاباته ومناظراته مع علماء الاجتماع، وفي دعوته إلى «صياغة جديدة للعلوم الاجتماعية» في محاضراته التي ألقاها، على سبيل المثال، في المؤتمر الدولي لعلماء الاجتماع من القارات الخمس في كندا في العام 1998م، والذي ركز فيه على مساءلة زُوَادِ علم الاجتماع ونقدهم، أمثال: دوركايم، وماركس، وفيبر بوصف مقولاتهم مُسلمات غير قابلة للشك.

لم يعد الغرب أنموذجاً؛ فقد الكثير من بريقه، حتَّى نظرياته في العلوم الإنسانية والاجتماعية باتت موضع شك وتساؤل، وباتت صفة الأزمة مُلازمة لما آلت إليه، وللمستقبل الذي تسير إليه. وقد بات من المُلح كما يقول «والترد. مينولو» أن يقوم العلماء في أفريقيا وربما بشكل أعم في العالم الثالث، بمساءلة أنفسهم عن معنى ممارساتهم من حيث هم علماء، وعن وظائفهم الحقيقية في نظام البحث

بِرُمَّتِهِ، وَعَنْ مَكَانَتِهِمْ فِي مَسَارِ إِنتَاجِ الْمَعْرِفَةِ عَلَى نِطَاقِ الْعَالَمِيِّ. أَمَّا شَرْطُ تَحْقِيقِ تِلْكَ الْمَكَانَةِ فَلَنْ يَتَحَقَّقَ بِالنَّسْبَةِ إِلَى مِينُولُو إِلَّا بِالْإِنْخِرَاطِ فِي مَا يُسَمِّيهِ «عَصِيَانِ مَعْرِفِيٍّ»، وَفِي عَمَلِيَّةِ فَكِّ ارْتِبَاطِ عَنْ سِحْرِ الْفِكْرَةِ الْغَرِيبَةِ، وَعَنْ الْحَدَاثَةِ وَالْمُثَلِّ الْعُلْيَا لِلْإِنْسَانِيَّةِ، وَعَنْ وُجُودِ النُّمُوِّ الْاِقْتِصَادِيِّ وَالْأَزْدِهَارِ الْمَالِيِّ كَمَا يُقَالُ فِي «وَوَلِ سْتَرِيْتِ».

طلال عتريسي